المنهج الوصفي في الدراسات العربية

أ. المنهج الوصفي عند علماء العربية القدماء

ليس القول بأن العرب القدماء بدؤوا دراساتهم اللغوية بالاعتماد على المنهج الوصفي ببعيد عن الحقيقة إذ يمكن ملاحظة ذلك من خلال النقاط الآتية:

١. لقد شافه النحاة الأوائل الأعراب في بطون البوادي واتصلوا بهم اتصالا مباشرًا وأخذوا منهم، وقد ذُكر عن الكسائي أنّه أنفذ خمس عشرة قنينة حبر في أثناء تدوينه مسائل اللغة من أفواه العرب ، وهذا أصل من أصول النحو الوصفي.

٢. كان أول عمل لغوي على يد أبي الأسود الدؤلي(ت٦٩هـ) يعد عملاً وصفياً خالصاً،إذ قال لكاتبه:((إذا رأيتني قد فتحت فمي بالحرف فانقط نقطة فوقه إلى أعلاه، وإنْ ضممت فمي فأنقط نقطة بيني يدي الحرف، وإنْ كسرت فاجعل النقطة من تحت الحرف))هذه الطريقة التي اتبعها أبو الأسود مع كاتبه هي طريقة وصفية محضة.

٣. إنَّ الذي يتتبع أعمال اللغويين الأوائل يجد أنَّ كثيرًا من أحكامهم كانت على أساس وصفي تقريري محض، ولا يوجد فيه تعليل أو تأويل أو تقدير، من ذلك ما ورد في كتاب سيبويه نجده في كثير من المواضع كان واصفًا لكلام العرب بدليل قوله في بعض هذه المواضع: ((فأجره كما أجروه وضع كل شيء

موضعه))الكتاب ١/١٧٥، وقوله: ((لأن هذا أكثر في كلامهم وهو القياس))الكتاب ١/٤٠٣.

٤. عُرفت مدرسة الكوفة بأنها مدرسة وصفية، وقد استدلوا لذلك ما ورد في تراثهم اللغوي، والحقيقة أنّ هذا الأمر لا يقتصر على الكوفيين فقد وردت عن البصريين بعض الإشارات التي تدل على وصفيتهم في بعض الدراسات اللغوية، من ذلك ما روي عن الكسائي الكوفي حين سُئل ((في مجلس يونس (وهو شيوخ الكسائي) عن قولهم: لا ضربَنَّ أيُّهم يقوم، لم لا يُقال: لا ضربَنَّ أيَّهم يقوم؟ فقال: أي هكذا خُلِقت))، وهذا وصف محضٌ كما ذكر أحد الباحثين، **ومما يُستدل به من تراث الكوفيين ما ورد عن ابن فارس(٣٩٥هـ) في كتابه الصاحبي** تعبير يشهد له بالنزعة الوصفية فيما دوّن من أحكام اللغة وقوانينها، فقد كان يقول: ((ومن سَنن العرب كذا وكذا..)).

٥ . ومن مظاهر الوصف في النحو العربي دراستهم الظواهر اللغوية على أساس (شكلي)، وقد مرَّ بنا أنَّ دراسة أشكال اللغة وأبنيتها التركيبية مبدأ من مبادئ المنهج الوصفي، والدليل على ذلك أنَّ النحاة العرب تناولوا ظواهر اللغة كالتأنيث والتذكير والتعريف والتنكير والإفراد والتثنية والجمع والعلاقة بين الفعل والفاعل والمبتدأ والخبر على أساس (الأشكال) لا على أساس (المعاني).

ب. **المنهج الوصفي عند الباحثين المحدثين**

لقد تأثر عدد كبير من الباحثين العرب المحدثين بالمنهج الوصفي، ولعل من أبرزهم الدكتور أنيس فريحة الذي دعا إلى الاكتفاء بالوصف لحقائق اللغة وقضاياها وتجنب منهج القدماء من تعليلات يُستمد أغلبها من غريب اللغة، وضرب مثالا لذلك الميزان الصرفي المتمثل في (فعل) الذي عده النحاة ميزانًا لكل

الأفعال الثلاثية، لأنهم نظروا إلى الكلمة على أنها (جوهر) أو(أصل) و(عرض) يلحق ذلك الأصل.

وقد وضع النحاة إلى وضع قوانين للإعلال والإدغام، ومن هذا قولهم: أنّ أصل (مدَّ . مدد) و(قال . قول) و(باع . بيع).

ويرى الدكتور أنيس فريحة أن اللغة لا تحتمل هذه النظرة المنطقية الصارمة، إذ يرى ينبغي أن يُقتصر على أحوال الفعل الثلاثي من الخارج، فيقولوا: لا حظنا أنَّ الفعل الثلاثي على فئات، وهي : (قام، باع، مدَّ، قضى ، ...) ولكل منها تصريف خاص ويُكتفى بهذا الكلام.

وقد ردّ الدكتور داوود عبده على أنيس فريحة ويرى أن هذا تطرف في استعمال المنهج الوصفي وعدم فهمه، وهو يرى أنَّ الوصف للظواهر اللغوية فقط لا يجعل علم اللغة علمًا، وضرب مثالا على ذلك أنّ عالم من علماء الطبيعة لو نظر إلى تفاحة تسقط من شجرة فيصف فقط فيقول: (إذا سقطت التفاحة من الشجرة فإنها تسقط عموديًا وإلى الأسفل)، وهذا مجرد وصف يستطيع أن يصفه أن شخص اعتيادي، أما العالم فيجب أن يُقدم تفسيرًا لما حدث، لا مجرد وصف، فعليه أن يقدم تفسيرًا لماذا سقطت التفاحة إلى أسفل ولم تتجه أفقيًا أو إلى الأعلى وهكذا.

ويرى الدكتور داوود عبده ينبغي أن لا نقتصر في اللغة على الوصف التقريري، الذي ينظر إلى حقائق اللغة من الخارج حسب؛ لأنَّ مثل هذا الوصف يمكن أن يقدمه أي إنسان عادي غير متخصص، وبذا فإن علم اللغة لا يكون علمًا كبقية العلوم.

وذهب إلى أنَّ الأفعال التي ذكرها الدكتور أنيس فريحة تحتاج إلى تفسير، على النحو الآتي:

أ. لماذا يكون مضارع (قال) مثلا (قَوَلَ) ومصدره(قَوْل)، بينما مضارع(باع) (يبيع) ومصدره (بَيْع).

ب. لماذا يكون الفعل (مدَّ) على وزن (فعَّ) في (مدّ . ومدّتُ . ومدّوا)، ولكنه يكون على وزن (فعل) في (مددْتُ . مدَدْنا . مَدَدْتُم).